# عالم المؤتمر

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والاعلام - الجمهورية العراقية

WWW.ATTAWEEL.COM

المجلد السابع عشر
العدد الاول
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

## أسد الدين شيركوه

# أثر الغناء في ظهور الموشحات الأندلسية

د. يونس شنوان

جامعة اليرموك - الاردن

الموشحات متفرعة من جذور الشعر العربي القديم . وقد اخذت من هذا الشعر شيئاً من لغته وانغامه ، وخرجت عليه احياناً في لغتها واوزانها . فلغة الموشح هي لغة عربية فصيحة ، وان مالت الى السهولة والبساطة التي تقربها من لغة العامة احياناً . ولكن الخرجة وهي الفعل الاخير في الموشح قد تأتي عامية احياناً واعجمية احياناً اخرى . والموشحات في اوزانها تخضع احياناً لاوزان الشعر العربي المعروفة كما ذكرها الخليل بن احمد ، وتخرج عليها في اغلب الاحيان . وفي هذا البحث محاولة للتعرف على اسباب هذا الاختلاف والتشابه ، من خلال العودة الى جذور الشعر العربي والحديث عن صلته الوثيقة بالغناء ، فالحداء هذا الغناء الذي يتردد برتابة هو صورة عن القصيدة العربية التي تتكرر فيها القافية من اول بيت الى اخر بيت وهو بالتالي صورة من طبيعة الجزيرة العربية التي تقوم في الغالب على الوحدة ، ومن العناصر السكانية المتجانسة التي عاشت فيها . واذا كانت هذه الوحدة هي التي تميز القصيدة فان التعدد ، والتنوع ، والزركشة ، والزخرفة هي التي تلفت الانتباه في الموشح . وهذا التنوع في اللغة والاوزان ناتج عن تعايش اللغات المختلفة في الاندلس : العربية ، والاعجمية ، والبربرية والعبرية ، وعن امتزاج الانغام العربية والاعجمية . ومن هذا التزاوج نشأت الموشحات والتي هي بالتالي صورة من البيئة والطبيعة الاندلسية .

## اثر الغناء في ظهور الموشحات الاندلسية

الاندلس في ذاكرتنا ، نحن العرب ، كلمة مضمخة بعبير التاريخ ، ومرادفة للجمال والشاعرية والسحر كلمة تشنف اسماعنا ، وتعود بمخيلتنا الى مئات السنين ، الى ذلك الفردوس المفقود ، والى زمان الاندلس ، الذي مر وكأنه لم يكن ، كسحابة صيف او حلم جميل ، او كما قال لسان الدين بن الخطيب الاندلسي :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يازمان الوصل في الاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى او خلسة المختلس[1]



WWW.ATTAWEIL.COM

لقد كان فتح العرب للاندلس ، من اسرع الفتوحات في العالم واغربها . واما خروج العرب من الاندلس ، فهو اشبه ما يكون بالحكاية ، لكن البحث العلمي ينزلنا من هذا العالم الشاعري السحري الى عالم الواقع والى ما يتطلبه البحث من دقة وموضوعية .

الجذور المشرقية :

عند الحديث عن الشعر الاندلسي ، باغراضه المختلفة : القصيدة والموشح والزجل ، لابد من الرجوع الى الجذور ، وجذور ذلك الشعر موجودة في المشرق . وسأركز هنا على علاقة الشعر بالغناء والموسيقى واثر ذلك في ظهور الموشحات . يرى المستشرق « فارمر » ان الموسيقى العربية في اصولها الاولى كانت عربية خالصة ، لكنها تأثرت فيما بعد بالموسيقى الاغريقية والرومية ، ويلاحظ « فارمر » التشابه بين الادوات الموسيقية المستعملة لدى المجموعات السامية وبين بعض الكلمات التي لها صلة بالغناء[1]

يبدو ان الشعر والموسيقى والغناء لقيت رواجاً في جنوب الجزيرة العربية في فترة سابقة على مجيء الاسلام وقد نتج عن الازدهار الاقتصادي الذي كانت الحجاز تنعم به تقدم في هذه الفنون . ومعروف ان الشعراء كانوا يتنافسون في سوق عكاظ ، ( وهو سوق بين مكة والطائف ، كانت القبائل تجتمع فيه في شهر شوال ) . وينشدون اشعارهم هناك[2] .

لقد وصلتنا المعلقات باوزانها المحكمة الصنع ، وهذا يدفعنا الى الاعتقاد بان جذورها ممتدة في ازمنة بعيدة . وعلينا ان نقر بأن هذه الاوزان المكتملة هي اوزان محلية نظمت من قبل العرب وللعرب .

ولا نشك ان هناك علاقة بين القصيدة وبين الحداء الذي ربما كان اصل الغناء العربي . والحداء هو ذلك النمط من الغناء الذي كان حادي العيس يردده ليتناسب مع وقع خطوات الابل الرتيبة المتكررة . انه صورة من القصيدة التي تتكرر فيها القافية الواحدة من المطلع الى اخر بيت .

وهذا هو الفرق الاول بين القصيدة والموشح . فبينما يقوم هذا الفن الاندلسي الاصيل ، على التعدد والتنوع في القوافي ، وعلى الزركشة والزخرفة والتزيين ، تقوم القصيدة على نمط واحد يتكرر ، في كل بيت ويفرض نفسه على القصيدة كلها .

وهذه الرتابة هي ايضا صورة من طبيعة الارض في الجزيرة العربية ، وهي طبيعة موحدة لانجد فيها تنوعاً الا بحدود ضيقة ، بخلاف الطبيعة الاندلسية التي تقوم على التعدد والتنوع .

ولعل هذا هو احد الاسباب العديدة التي تفسر ظهور الموشح في الاندلس .

يلاحظ ان انشاد الشعر ، منذ الجاهلية ، كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بالغناء ، ونجد ان ذكر القيان المغنيات يتردد كثيراً في الشعر الجاهلي وفي الشعر الاسلامي ، وقد شاع الغناء شيوعاً كبيراً في المدينة المنورة وهناك ادلة كثيرة مبثوثة في ثنايا كتاب الاغاني ، تؤيد ماذهب اليه ، ولا شك بأن هذا الازدهار كانت له جذوره البعيدة ، لقد كان الشعر الجاهلي شعراً غنائياً وقد غنى بعضهم مقاطع من قصائدهم كالمهلهل ( ت حوالي ٥٠٠ م )[1] ويذكر صاحب كتاب الاغاني مراراً ان شاعراً جاهلياً غنى ابياته كالسليك بن السلكة ( ت حوالي ٦٠٥م )[2] اما الاعشى ميمون ابن قيس ( ت عام ٦٢٩ م ) فقد كان ينشد اشعاره بمرافقة اداة موسيقية تسمى الصنج ، وربما سمي لذلك « صناجه العرب »[3] .

ويقول ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » عن امرىء القيس : ومما يتغنى به من شعره :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قوله :

تقول وقد مال الغبيط بنا معا
عقرت بعيري يامرأ القيس فانزل

ويخاطب ابو النجم بن قدامة ، احدى الفتيات بابيات من الشعر يقول فيها :

تغنى ، فان اليوم يوم من الصبا
ببعض الذي غنى امرؤ القيس او عمرو
فظلت تغنى بالغبيط وميله
وترفع صوتاً في اواخره كسر[3]

ويقول حسان بن ثابت :

تغن بالشعر اما كنت قائله
ان الغناء لهذا الشعر مضمار

ويقول ابن عبدربه الاندلسي عن شعر حسان « ان اكثره

كان يغني »[8] .

وكانت الموسيقى الى جانب الغناء تلعب دوراً اساسياً في اسرار العرافين والسحرة ، ومن هنا جاءت الاسطورة التي تقول بأن الشعراء والمغنين يلهمون اشعارهم والحانهم عن طريق الجن .

وكان زرياب في الاندلس يدعي ان الجن كانت تكلمه وتعلمه افضل اغانيه والحانه ، « فكانت تعلمه في كل ليلة نوبه او صوتاً واحداً ، وكان يفيق من نومه ، ويدعو بجاريته غزلان . وهنيدة فتأخذان عودييهما ، ويأخذ هو عوده ، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر ، ثم يعود عجلاً الى مضجعه ، وكذلك يحكي عن ابراهيم الموصلي في لحنه المعروف بالماخوري ان الجن طارحته اياه » والله اعلم[9] .

وتؤكد بعض الكلمات في اللغة العربية طبيعة العلاقة بين الموسيقى والجن ، فكلمة « عزف » مثلاً تعني صوت الجن وكذلك الايقاع الموسيقي ، واظن ان الشعراء والمغنين ارادوا من وراء ذلك ان يميزوا انفسهم عن بقية الناس ، وان يلقوا في روعهم ان ابداعهم يأتي من مصادر عليا وان الناس يعجزون عن الاتيان بمثل هذا الشعر او ذلك الغناء فادعوا وجود واد اسمه وادي « عبقر » فيه تابعة لكل شاعر ، تلهمه الشعر ، وفي الاندلس كتب ابو عامر بن شهيد رسالته المشهورة « التوابع والزوابع »[10] السابقة على رسالة الغفران لابي العلاء المعري ، وهي رسالة خيالية التقى فيها الكاتب في عالم الجن بتوابع الشعراء والكتاب في الجاهلية والاسلام .

كل ماقيل سابقاً يؤكد العلاقة الوطيدة بين الشعر والغناء ويؤيد ماذهبنا اليه من ان قسماً كبيراً من الشعر الجاهلي كان يغنى ، ولا نستبعد وجود مؤثرات اجنبية في الغناء في العصر الجاهلي ولكن علينا ان نحذر المبالغة في حجمها .

### فتح الاندلس واول التأثيرات المشرقية :

فتح العرب الاندلس عام ٩٢هـ / ٧١١م وكانت ولاية تابعة لدمشق ، واستمر هذا الامر حتى سقوط الخلافة الاموية في المشرق عام ١٣٢هـ . وعاشت الاندلس فترة اضطراب بين عام ١٣٢ هـ حتى عام ١٣٨هـ وهو العام الذي دخل فيه عبدالرحمن الى الاندلس وبدأ فيه عصر الامارة .

كان النشاط الادبي والفني محدوداً في تلك الفترة وهذا امر طبيعي لان اغلب الفاتحين كانوا جندا وكان قسم كبير منهم من المسلمين البربر .

وفي عصر الولاة واوائل عصر الامارة كانت التأثيرات المشرقية قادمة من الشام ومن الحجاز وظلت الاندلس تعتمد اعتماداً يكاد يكون تاماً ، على الاغاني والتلاحين المشرقية ، وهذا لاينفي بطبيعة الحال وجود مؤثرات محلية بصورة محدودة ، وكان امراء بني امية يستقدمون المغنيات من المشرق ومن المدينة بالذات ، فقد اشترى عبد الرحمن الداخل جارية اسمها فضل وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال واشتريت معها صاحبتها علم المدينة ، وصواحب غيرها اليهن تنسب دار المدنيات في القصر في قرطبة .

وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة ادبهن ، وتضاف اليهن جارية يقال لها قلم ، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عند الامير المذكور ، وكانت اندلسية الاصل رومية من سبي البشكنس ، وحملت صبية الى المشرق ، فوقعت بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلمت هناك الغناء فحذقته[11] .

وكان الامير الحكم الربضي احد الامراء الذين اهتموا كثيراً بالغناء ، فقد كان يلقي على جواريه بعض الابيات ويقترح عليهن غناءها ، ومن اشهر المغنيات في بلاطه مهجة وعزيز وفاتن ، وفي احدى المرات منعنه من الدخول الى القصر فنظم ابياتاً يصور فيها تذلل الجواري وتمنعهن قال :

ظل من فرط حبه مملوكاً
ولقد كان قبل ذاك مليكا
ان بكى او شكا الهوى زيد ظلما
وبعاداً يدني حماماً وشيكا
تركته جآذر القصر صبّاً
مستهاماً على الصعيد تريكا
هكذا يحسن التذلل في الحب
اذا كان في الهوى مملوكا[12]

وهذا الشعر يذكرنا بابيات مشهورة تنسب لهارون الرشيد

حول الموضوع نفسه يقول :

ملك الثلاث الأنسات عناني
وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها
واطيعهن وهن في عصياني
وماذاك الا ان سلطان الهوى
وبه قوين اعز من سلطاني[12]

وكان امراء بني امية يجزلون العطايا للمبدعين من المغنين والمغنيات .

ومن بين المغنين في بلاط الحكم عباس النسائي وكان يغني مقطوعات نظمها الامير نفسه ، اما سالم مولى المغيرة بن الحكم ، فقد كان مغنياً بارعاً ، ويبدو انه تعلم بعض الالحان من بعض رسل ملوك النصارى الاسبان ، فقد كان يعمد الى تأخيرهم في بيته ومطارحتهم بعض الالحان ، وكان لمغيرة بن الحكم قد اشترى مغنية عراقية كانت تغني الى جانب سالم ، وهكذا فان سالم هذا قد مزج بين غناء الاسبان والغناء العربي القادم من المشرق ، وقد ساعد الغناء على شيوع الشعر على الالسنة وعلى سهولة لغته وميلها الى الرقة والعذوبة[13]

وصول زرياب الى الاندلس :[14]

وبقدوم زرياب واولاده وجواريه فتحت صفحة جديدة في تاريخ الشعر والغناء في الاندلس ، فقد اخملوا ذكر من سبقهم وكان زرياب تلميذاً للمغني المشهور اسحق الموصلي ، ولكن اسحق هذا عندما رأى اعجاب خلفاء بني العباس بزرياب دفعة حسده لزرياب على ارغامه على الهجرة بعيداً عن بغداد والمشرق كله .

راسل زرياب الامير الحكم الربضي مبدياً رغبته في الرحلة الى الاندلس ، فسر بذلك الحكم ، وشجعه على القدوم ، ولكن المنية عاجلت الحكم ، قبل وصول زرياب ، ولم يكن الامير عبدالرحمن الثاني باقل رغبة من الحكم في الغناء فحثه على المجيء وسر بقدومه .

وحظي زرياب بمكانة عند الامير عبدالرحمن الثاني ، وكتب له الامير في كل شهر بمائتي دينار ، واجرى عليه من المصروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد الف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها من الضياع مايقوم باربعين الف دينار ، ولما سمع غناءه اطرح كل غناء سواه ، واحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين . وكان زرياب محدثاً لبقاً وعارفاً بسير الخلفاء ونوادر الملوك مما زاد في علو مكانته عند الامير .

ولقد اثارت مكانة زرياب هذه حسد بعض الشعراء الذين هجوه ومن بينهم الشاعر المشهور يحيى بن الحكم الغزال ، وعزم الامير على نفي شاعره الى المشرق لولا توسط كبار رجال الدولة .

ادخل زرياب تجديدات على صنع العود وزاد في اوتاره وتراً خامساً واخترع له مضراباً من قوادم النسر معتاضاً به عن الخشب والاهم من هذا كله هو ان زرياب كان صاحب مدرسة في الغناء لها تقاليدها التي استمرت في الاندلس وشمال افريقيا لحقبة طويلة من الزمن .

يقول المقري : « واستمر بالاندلس ان كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد اول شدوه باي نقر كان ، ويأتي اثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والاهزاج تبعاً لزرياب[15] وقد نجد بذور الموشحات الاندلسية الاولى في هذا النوع من الغناء ، الذي يقوم على التنوع والتعدد .

ولم تقتصر التجديدات التي ادخلها زرياب على فن الغناء فقط ، وانما تعدته الى التجديد في طرق المأكل والمشرب والملبس وتصفيف الشعر وما الى ذلك ، واصبح زرياب وجواريه رواداً يقتدى بهم في المجتمع الاندلسي في كثير من التقليعات .

وشاع الغناء في الاندلس على يد زرياب وتلاميذه شيوعاً واسعاً ، ولقي قبولاً لدى اكثر الناس ، حتى ان رجلاً فقيها مثل ابن عبدربه لم يجد حرجاً من سماع الغناء والاعجاب ، وقد خصص فصلاً في الجزء السادس من كتابه « العقد الفريد » للغناء ، يدل على مدى تعلقه وشغفه به يروى ان ابن عبدربه كان يستمع الى غناء مصابيح وهي تلميذة من تلاميذ زرياب في الغناء عندما كان في طريقه الى المسجد ، وكانت مصابيح غاية في النبل وحلاوة الصوت ويبدو انه منع من سماع صوتها فكتب الى مولاها يقول :

يامن يضن بصوت الطائر الغرد
ماكنت احسب هذا البخل من احد

لـو ان اسـمـاع اهـل الارض قـاطـبـة
اصـغـت الى الـصـوت لم يـنـقص ولم يـزد

فخرج صاحب الجارية حافياً لما وقف على ذلك ، وادخل ابن عبدربه الى البيت[١٧] .

وشاهد آخر على شيوع الغناء وانتشاره وعدم تحرج الناس من سماعه هو مايروى عن القاضي ابو عبدالله محمد بن عيسى قاضي قرطبه فقد استمع الى جارية تغني الابيات التالية :

طـابـت بـطـيـب لـثـاتـك الاقـداح
وزهـت بـحـمـرة خـدك الـتـفـاح
واذا الـربـيـع تـنـسـمـت ارواحـه
طـابـت بـطـيـب نـسـيـمـك الارواح
واذا الحـنـادس الـبـسـت ظـلماءهـا
فـضـيـاء وجـهـك في الـدجـا مـصـبـاح

فكتبها القاضي في ظهر يده يقول القاضي ابن الصفار :

فلقـد رايته يكبر للصلاة والابيات مكتوبة على ظهر كفه !![١٨] .

وكان ابن حزم الظاهري يشبه ابن عبدربه في اعجابه بسماع الغناء ، وقد كتب رسالة عن الغناء ، وروي غي طوق الحمامة اكثر من حكاية تدل على شغفه بالسماع وكانت احدى كرائم المظفر بن ابي عامر قد طلبت اليه ان ينظم لها ابياتاً من الشعر لغاية الغناء فلبى طلبها .

كان ابن حزم معجباً بجارية تحسن الغناء وكانت مع مجموعة من النساء يحضرن حفلاً في بيتهم يقول عن النسوة : « ثم نزلن الى البستان ، فرغبت عجائزنا وكرائمنا الى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها فاخذت العود وسوته بخفر وخجل عهد لي بمثله وان الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغني بابيات العباس بن الاحنف حيث يقول :

اني طـربـت الى شـمـس اذا غـربـت
كـانـت مـغـاربـهـا جـوف المـقـاصـير
شـمـس ممـثـلة في خـلـق جـاريـة
كـأن اعـطـافـهـا طـي الـطـوامـيـر
لـيـسـت مـن الانس الا في مـنـاسـبـة
ولا مـن الجـن الا في الـتـصـاويـر
فـالـوجـه جـوهـرة والجـسـم عـبـهـرة
والـريـح عـنـبـرة ، والـكـل مـن نـور
كـأنها حـين تخـطو في مجـاسـدهـا
تخـطو عـلى الـبـيـض او حـد الـقـوارير

فلعمري لكان المضراب انما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ولا انساه الى يوم مفارقتي الدنيا[١٩] .

**العناصر السكانية في الاندلس والازدواج اللغوي :**

كان المجتمع الاندلسي مجتمعاً قائماً على التعدد والتنوع ، فالمولودن ، الذين نتجوا عن التزاوج وبين السكان الاصليين والمسلمين الفاتحين ، كانوا يشكلون نسبة كبيرة في ذلك المجتمع ، وكانوا يعرفون الاعجمية ( الرومانث ) الى جانب معرفتهم للغة العربية ، اما المستعربون ، وهم السكان الاصليون الذين ظلوا على النصرانية بعد فتح الاندلس ، فقد كانوا يعرفون اللغة العربية معرفة جيدة الى جانب معرفتهم لغتهم ، لكنهم كانوا لايحسنون اللاتينية وكانت هي لغة الدين آنذاك ، وقد تحسر على ذلك الراهب البرو القرطبي بقوله :

« ان اخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، يقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلاسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقصوها ، وانما لكي يكتسبوا من ذلك اسلوباً عربياً فصيحاً . واين تجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الاناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين واثار الانبياء والرسل ؟ ياللحسرة ! ان الموهوبين من شباب النصارى لايعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم . وهم ينفقون اموالاً طائلة في جمع كتبها . ويصرحون في كل مكان بأن هذه الآداب جديرة بالاعجاب . فاذا حدثهم عن الكتب النصرانية اجابوك في ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا اليها انتباههم . للألم ! لقد نسي النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع ان يكتب الى صاحب له كتاباً سليماً من الخطأ ، فأما عن الكتابة في لغة العرب فانك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في اسلوب منمق ، بل هم ينظمون في الشعر العربي مايفوق شعر العرب انفسهم فناً وجمالاً[٢٠] .

أما في وقتنافقد انعكست الصورة وحالنا ليست بحاجة الى شرح وهذا كما يقول ابن خلدون بحق مظهر من مظاهر التغلب[٢١] .

اما البربر فقد دخلوا الاندلس بأعداد كبيرة وأسر كاملة بخلاف العرب الذين دخلوا جنداً في الغالب . وكان البربر يعرفون العربية والاعجمية الى جانب لهجاتهم الخاصة . وكان العرب ايضاً يعرفون الاعجمية ، وكذلك اليهود الى جانب معرفتهم بالعبرية . وقد تعايشت هذه الاجناس وهذه اللغات جنباً الى جنب تحت مظلة الاسلام في جو انساني سمح شفاف وهذا باعتراف المستشرقين انفسهم .

لقد كان هذا التعدد والتنوع سبباً في الازدهار والتحضر في الاندلس وذلك حينما كان الامويون يمسكون بزمام الامور ويسيرون بحكمة واتزان ، وعندما كانوا يقفون موقفاً معتدلاً من مختلف العناصر دون تعصب ولا تحيز ، لقد كان المجتمع الاندلسي اشبه ما يكون بالموشح في تنوعه وزركشته ولكن هذا التعدد والتنوع كان سبباً في انقسام الاندلس وانهيار الحكم العربي هناك .

## الموشحات والغناء :

اشرنا الى الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء . وهذه الصلة هي اكثر وضوحاً بين الموشح والغناء وللتيفاشي صاحب كتاب « متعة الأسماع » رأي في الغناء الاندلسي يقول : « يبدو ان اهل الاندلس في القديم كان غناؤهم اما بطريقة النصارى او بطريقة حداة العرب . ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه : « الى ان تأثلت الدولة الاموية ، وكانت مدة الحكم الربضي فوفد عليه من المشرق ومن افريقيا من يحسن غناء التلاحين المدنية ، فأخذ الناس عنهم الى ان وفد الامام المقدم في هذا الشأن علي بن نافع الملقب بزرياب غلام اسحق الموصلي على الامير عبدالرحمن الاوسط ، فجاء بما لم تعهده الاسماع واتخذت طريقته مسلكاً ونسي غيرها الى ان جاء ابن باجة الامام الاعظم واعتكف عدة سنين مع جوار محسنات فهذب الاستهلال والعمل ، ومزج غناء النصارى بغناء المشرق ، واخترع طريقة لاتوجد الا بالاندلس مال اليها طبع اهلها فرفضوا ماسواها »[٢٠] .

وهذا المزج بين غناء النصارى وغناء العرب هو ايضاً احد الاسباب التي تفسر ظهور الموشحات في الاندلس دون غيرها من البلاد الاسلامية .

لقد اقترنت الموشحات بالاندلس ، ففيها نشأت وتأصلت ، ومنها خرجت الى بقية انحاء العالم الاسلامي ، لقد كانت التأثيرات المشرقية عاملاً اساسياً في الثقافة الاندلسية ، وقد ردت الاندلس هذا الدين باختراع هذا الفن الجديد ونقله الى المشرق ، وقد اعترف المشارقة لاهل الاندلس بفضل التقدم . يقول ابن سناء الملك المصري : « الموشحات مما ترك الاول للآخر . وسبق بها المتأخر المتقدم ، واجلب بها اهل المغرب على اهل المشرق . . صار المغرب بها مشرقاً لشروقها بأفقه : واشراقها في جوه وصار اهلها بها اغنى الناس لظفرهم بالكنز الذي ذخرته لهم الايام وبالمعدن الذي غاب عنه الانام »[٢٣] .

وقد كتب ابن سناء الملك هذا دراسة قيمة عن الموشحات فقد وضع اصولها وقواعدها ، وتحدث عن خصائصها واوزانها ، وهي دراسة لايستغني عنها دارس للموشحات .

وفي آخر المقدمة يعترف ابن سناء الملك بتواضع جم بأن المشارقة لايستطيعون مجاراة اهل الاندلس في فن الموشحات يقول : « واعذر اخاك فانه لم يولد بالاندلس ولا نشأ بالمغرب ، ولا سكن اشبيلية ، ولا ارسى على مرسية ولا عبر على مكناسة ولا سمع الأرغن ( والارغن اداة موسيقية تصدر انغاماً متنوعة ) . . »[٢٤]

يقول الصفدي في توشيع التوشيح : الموشح فن تفرّد به اهل المغرب وامتازوا به على اهل المشرق[٢٥] ويخصص ابن خلدون في آخر مقدمته فصلاً عن الموشحات يقول فيه .

« واما اهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه الموشح »[٢٦] .

## ظهور الموشحات :

اما تاريخ ظهور الموشحات فيعود الى اواخر القرن الثالث الهجري ايام حكم الامير عبدالله ( ٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ ) واختلف الكتاب في اقدم الوشاحين هل هو محمد محمود القبري ام مقدم ابن معافي القبري ، ام ابن عبدربه الذي كان قد نظم الموشح ايضاً .

ومن الملفت للانتباه انه على الرغم من شيوع الموشحات واعجاب الكثيرين بها الا ان الكتاب لم يعنوا بتدوينها وتسجيلها الا في فترة متأخرة وعلل بعضهم ذلك « بأن اكثرها على غير اعاريض الشعر العربي » او « ان العادة لم تجر على تدوينها في الكتب المخلدة »[٢٧] ويعود هذا الاهمال في رأيي الى ان للقديم على نفوسنا ، نحن العرب ، سلطاناً فلا نتقبل الجديد في البداية

بسهولة والصراع بين القديم والجديد موجود منذ القدم . لقد تعودت الاذن العربية على نغم رتيب يتكرر في القصيدة من اولها الى آخرها ، وعندما جاءت الموشحات ثورة على الرتابة في الاوزان لقيت معارضة وعزوفاً عن تدوينها في البداية على الرغم من شيوعها واعجاب الناس بها .

ان اول مايميز الموشحة عن القصيدة هو انها لاتلتزم بقافية واحدة ، فهي تتيح للناظم حرية في القوافي لكن هذا لايعني ابداً ان الموشحات بدون ضوابط وقواعد ، بل انها تزيد على القصيدة في قواعدها .

اوزان الموشحات :

عجز الدارسون حتى الآن عن حصر اوزان الموشحات وكان ابن سناء الملك قد قسمها الى قسمين[٢٨]

ـ ماجاء على اوزان اشعار العرب وهذا اقرب الى المسمطات والمخمسات منه : الى الموشح ، وابن سناء الملك لايظهر ميلاً لهذا النوع .

ـ اما القسم الثاني فهو مالا مدخل لشيء منه في شيء من اوزان العرب يقول عن هذا القسم : « وهذا القسم منها هو الكثير ، والجمّ الغفير ، والعدد الذي لاينحصر ، والشارد الذي لاينضبط وكنت اردت ان اقيم عروضاً يكون دفتراً لحسابها ، وميزاناً لاوتادها واسبابها فعزّ ذلك واعوز لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف ، وما لها عروض الا التلحين ولا ضرب ، الا الضرب ، ولا اوتاد الا الملاوي ولا اسباب الا الاوتار ، فبهذه العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، واكثرها مبني على تأليف الارغن ، والغناء على غير الارغن مستعار وعلى سواه مجاز » .

ويرى ابن سناء الملك انه لايجوز للوشاح عمل شيء لايمشيه التلحين له لانها ستظهر فضيحته وقت غنائه « فان المغني ببعض الالات يحتاج الى ان يغير في شد الاوتار عند خروجه من القفل الى البيت وعند خروجه من البيت الى القفل » ويرى ان



اكثر الموشحات تدرك اوزانها عن طريق الذوق والسمع وبعضها لايستقيم وزنها الا بالتلحين ، وبعضها لايكتفي بالتلحين لمعرفة استقامة وزنه الا بأن يتوكأ على لفظة لامعنى لها تكون دعامة للتلحين كقول ابن بقي :

فان التلحين لايستقيم الا بأن يقول : لا لايين الجيمين من هذا القفل . يتألف الموشح من مجموعة من الاقفال والادوار ، والقفل هو عبارة عن مجموعة من الاغصان ويشترط ان تكون القافية موحدة بين الاقفال المختلفة اما الدور فهو مجموعة من الاسماط ، تتوحد القافية داخل الدور الواحد ، ولكنها قد تختلف بين الدور وبقية الادوار ، اما البيت في الموشح فهو يختلف كثيراً عن البيت في القصيدة . وهو عبارة عن الدور اضافة الى القفل الذي يليه . لكن اهم جزء في الموشح هو الخرجة ، وهي التي تميز الموشح كثيراً عن القصيدة والخرجة هي القفل الاخير في الموشح ولكن الوشاح يبدأ بها عند نظم الموشح فهي السابقة وان كانت الاخيرة او يمسك الذنب ويتصعب عليه الرأس كما يقول ابن سناء الملك وتفسير ذلك ان الخرجة غالباً ماتكون اغنية تتردد على ألسنة عامة الناس فلذلك تسبق الخرجة عادة بكلمة غنّى او غنت او غنيت . وغالباً ماتأتي الخرجة بالعامية الاندلسية او بأعجمية اهل الأندلس وقد تأتي بالفصحى اذا كان موضوع الموشح مدحا وذكر اسم الممدوح فاجلالا له تكون الخرجة معربة وقد تأتي معربة اذا كانت كلماتها غزلة جداً ، ورقيقة ناعمة تقترب من العامية ، وان لم تك عامية وهذا نادر وقليل . اما لغة الموشح في بقية اجزائه فهي معربة وما الخرجة الاعجمية الا صورة من تأثير العناصر الاسبانية المحلية وكان التأثر والتأثير امراً بديهياً بين المسلمين وجيرانهم وهذا الموضوع بحاجة الى دراسة مستقلة

## الهوامش

( ١ ) انظر ديوان الموشحات الاندلسية ، المجلد الثاني ص ٤٨٤ ، تحقيق د . سيد غازي نقله الى العربية جرجيس فتح الله المحامي .
( ٢ ) انظر : فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ص ٥٨
( ٣ ) انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٤٢ .
( ٤ ) انظر الاصفهاني ، الاغاني ، جـ٤ ، ص١٤٧ .
( ٥ ) المصدر السابق ، جـ ١٨ ، ص ١١٤ .
( ٦ ) انظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، جـ١ ، ص ٢٥٨ .
( ٧ ) انظر : المصدر السابق ، جـ ، ١١٣ .
( ٨ ) انظر ابن عبدربه ، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص٦ .
( ٩ ) انظر : المقري ، نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص١٢٥ ـ ١٢٦ .
( ١٠ ) انظر ، ابن بسّام ، الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص٢٤٥ وما بعدها .
( ١١ ) انظر : المقري ، نفح الطيب ، جـ٣ ، ص ١٤٠ .
( ١٢ ) انظر : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ١ ، ص ٤٩ ، ابن عذارى ، البيان المغرب . جـ٢ ، ص٧٩ ـ ٨٠ .
( ١٣ ) انظر : ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج٦ ، ص٤٦ .
( ١٤ ) انظر : احسان عباس ، تاريخ الأدب الاندلسي ، عصر سيادة قرطبة ص ٦٠ .
( ١٥ ) انظر : المقري ، نفح الطيب ، جـ٣ ، ١٢٢ ـ ١٣٣ .
( ١٦ ) المصدر السابق ص ١٢٨ .
( ١٧ ) المصدر السابق ص ١٣١ .
( ١٨ ) انظر ، المقري ، نفح الطيب ،جـ٢ ، ص١٢ ـ ١٣ .
( ١٩ ) انظر ابن حزم ، رسائل ابن حزم ، جـ١ ، ص٢٥٠ ـ ٢٥١ .
( ٢٠ ) انظر : انخل جونثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٨٥ ، نقله الى العربية د . حسين مؤنس .
( ٢١ ) انظر ابن خلدون ، المقدمة ص ١١٧ يقول ابن خلدون في حديثه عن تقليد اهل الاندلس للجلالقة : « فاننا نجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء » .
( ٢٢ ) انظر : مجلة عالم الفكر ، مجلد ١٢ / ١٩٨١ ، ص٢٠ .
( ٢٣ ) انظر : ابن سناء الملك ، دار الطراز ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .
( ٢٤ ) المصدر السابق ، ص ٥٣ .
( ٢٥ ) انظر : الصفدي ، توشيع التوشيح ص ٢٠ .
( ٢٦ ) انظر ابن خلدون ، المقدمة ص ٥٨٣ .
( ٢٧ ) انظر ديوان الموشحات الاندلسية ، تحقيق د . سيد غازي ص٦ .
( ٢٨ ) انظر : ابن سناء الملك ، دار الطراز ، ص ٤٤ ـ ٥٠ .

## المصادر والمراجع


ابن الابار — الحلة السيراء تحقيق : د . حسين مؤنس ط . الشركة العربية ، للطباعة ، القاهرة سنة ١٩٦٣ .
الاصفهاني ، ابو الفرج — الاغاني ط ـ دار الفكر للجميع بيروت ١٩٧٠ مصوره عن طبعة بولاق .
بالنثيا ، انخل جونثالث — تاريخ الفكر الاندلسي ، عرّبه حسين مؤنس ، ط . المكتبة المصرية القاهرة سنة ١٩٥٥ .
ابن بسام — الذخيره ، تحقيق د . احسان عباس . ط . الثقافة بيروت ١٩٧٩ .
ابن حزم — رسائل ابن حزم ، تحقيق د . احسان عباس ط . المؤسسه العربية للدراسات والنشر بيروت سنة ١٩٨٠ .
الحموي ، ياقوت — معجم البلدان ، ط دار مصادر بيروت .
ديوان الموشحات الاندلسية — تحقيق الدكتور سيد غازي ط ـ منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٩ .
ابن سناء الملك — دار الطراز ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ط . دار الفكر دمشق ١٩٨٠ .
ابن عبدربه — العقد الفريد ، تحقيق احمد امين ورفاقه ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
عباس ، احسان — تاريخ الادب الاندلسي عصر سيادة قرطبة ، ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٨١ .
ابن قتيبة — الشعر والشعراء ، تحقيق احمد شاكر ، ط . دار المعارف ١٩٦٦ .
فارمر ، هنري جورج — تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، عربه جرجس فتح الله المحامي ، ط . دار مكتبة الحياه .
المقري ، نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ط . دار الثقافة بيروت .


الدوريات


مجلة عالم الفكر : المجلد الثاني عشر ١٩٨١ عدد عن حضارة الاندلس .